الفصل الثامن

انتحار...!

عشرة أيامٍ من بدء الغارة التي لم تنتهِ بعد.. عشرة أيامٍ في قتال مستمر، ومعارك دائرة هنا وهناك.. عشرة أيامٍ، فيها الأرواح تتساقط، والدماء تسيل، والحياة تتحول من سيىءٍ إلى أسوأ.

وقف العم "محمود" بباب داره، يتأمل ما حوله.. لقد تحول كل شيءٍ إلى خرائب وأطلال حتى حديقة بيته انقلبت أشجارها رأساً على عقب، وتهدمت أجزاء كثيرة منها، وهذا البيت الذي كان يخص جهاد أصبح أثراً بعد عين.. حمداً لله أنها رحلت، ولم تكن بداخله.. كل هذا لا يهم، لقد اعتاد على رؤية هذا المنظر منذ أن أصبح يقف بباب داره أكثر من مرة في الساعة الواحدة ممنياً نفسه بعودة طارق الذي لم يعد منذ أن غادر المنزل قبل عشرة أيامٍ، ولسان حاله يقول: ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأسوا من روح الله إلا القوم الكافرون.

ترى هل أصابه شيءٌ هو الآخر، أم أنه ما زال على قيد الحياة يحارب هنا ويدافع هناك؟.. ترى هل ما زال هنا يضمد جريحاً، أو يدفن شهيداً، أم أنه قد حان موعده؟.. ترى هل قضى نحبه، أم ما زال حيا يُرزق؟.. ترى هل هو حي يتنفس الآن، أم أن جثته إحدى الجثث الملقاة على الطرقات؟.. وأحس الرجل بسكين يغرس في قلبه.

تنبه على صوت جنازير الدبابات، وهي تقطع الطرقات مكتسحة كل شيءٍ أمامها من مبانٍ، أو أشجارٍ، أو حتى جثث.. وصيحات الجنود الإسرائليين تتعالى هنا

وهناك.. من الواضح أنهم كسبوا المعركة، وبات كل شيءٍ تحت قبضتهم الآن.. من الواضح أن طارق ورفاقه هم الفئة الخاسرة.. كان يشعر أن المعركة غير متكافئة منذ البداية.. عدم كفاية الأسلحة، وعدم كفاية حامليها، والدعم قد انقطع من كافة البلدان العربية.

مصر مشغولة بالحفاظ على سيناء، وسوريا تحارب من أجل الجولان، وحروب أهلية هنا وهناك، وكل بلدٍ مشغولٌ بما فيه.. والقدس قدِمت لإسرائيل على طبق من ذهب.. لقد دفعت فلسطين وحدها الثمن.. ثمنٌ غالٍ جداً من الدماء الفلسطينية الزكية، والأرواح البريئة الطاهرة.

وارتفع صوتُ الأم يصيح به من الداخل:

-ماذا تفعل عندك؟

كاد أن يقول لها، إنه يرقب طارق لعله آتٍ لكنه صمت.

ثم ارتفع صوتها مجدداً:

-ادخل، حتى لا تُصاب بنزلة برد.. وأتبعت بصوتٍ مرتجف النبرات:

-أو حتى لا تصيبك إحدى رصاصاتهم الغادرة.

تمتم قائلاً في نفسه:

-يا ليت.. ليت أحد رصاصتهم تستقر في قلبي مقابل أن يعود طارق سالماً.. الوطن والعائلة يحتاجان لمن هم مثل طارق.. أما أنا فقد ولّى زماني وانقضى.. عجوز هرم فقد ابنته ووالديه في قصفٍ مثل هذا، ولم يبق منه سوى مجموعة من حطام المشاعر والذكريات والجسد أيضاً.. ماذا سيفقد الوطن إن فقد مَن هم مثله؟!

وعاد إلى غرفته، فوجد زوجته جالسة مصفرة الوجه، تعصب رأسها بمنديلٍ، بدت من خلاله بعض شعراتها البيضاء، ولم يشك أن هذا الشيب الذي زار رأسها فجأة، إنما هو من قلقها على وليدها الذي رحل على غير موعدٍ.. ولمعت في ذهنه صورة جهاد، فأغمض عينيه، وكأنه يحاول أن يتجنب منظراً كريهاً شنيعاً، وتمتم قائلاً:

-كانت واحدة من أولئك الذين منحناهم كل قوتنا، فتخلوا عنا وقت ضعفنا.. كنا لهم وطناً، فلم نجد فيهم إلا غربة.. منحناهم الأمان، فلم يتركوا في صدورنا إلا الخراب، وبقايا أطلال من الذكريات.. أسبغنا عليهم الأنس، فتركونا وقت الوحشة.. صببنا عليهم الحب صباً، فما زادهم ذلك عنا إلا بُعداً!

وجاء "خالد"، وتساءل في صوتٍ حزين:

-ألن نبحث عن "طارق"؟.. هل سنظل جالسين هكذا؟

فتنهد الأب وقال في أسى:

-لعله يعود الآن، مَن يدري؟

ونظرت الأم إلى السماء، وكأنها تستهلمها الإجابة.. وسُمع صوت خطوات تقترب، ثم صوت طرقات على الباب، ونهض الجميع من أماكنهم، وفتح الباب ولم يكن الطارق سوى " أيمن " صديق طارق، ورفيقه في فرق المقاومة، قد وقف أمام الباب، أشعث الشعر، معفر الوجه، ومغبر وممزق الثياب.. وقف صامتاً، والحيرة تلوح على ملامحه لا يدري ماذا يقول، ولم يجسر أحد أن يوجه له سؤالاً واحداً.

****

منذ بدء الغارة، لم تسأم المحطات الفلسطينية من البث المشترك؛ للتنديد بما تفعله إسرائيل من عدوان على أهل غزة، وبدأت " سلمى الحسيني " " وحسام الصاوي " بتقديم المقالات تليها المقالات الأخرى عن الذي حدث في الأيام الأخيرة، وأخيراً أذيع التقرير الرسمي الذي يعرض على كافة القنوات، والمحطات الفلسطينية بالاشتراك مع المذياع أيضاً.

" ألم نسأم الحروب والحديث عنها.. نعلم شرها وأذاها، ولا نعرف كيف نتجاوزها.. تدمرنا.. تطحننا.. فلقد أودت الحرب الأخيرة بحياة ما يقارب من أربعة آلاف شهيد، وتعرض آلاف آخرون لإصاباتٍ، وإعاقاتٍ مدى الحياة، وأصبح آلاف الأطفال في عداد اليتامى.

ولنا أن نتصور عدد الإصاباتِ والإعاقاتِ في صفوف المدنيين العزل الذين تركوا المدينة، وفروا بأرواحهم إلى الصحراء حيث المخيمات لعلهم ينجون بمن تبقى من ذويهم وأبنائهم.. لفظتهم بيوتهم، وانهدمت عليهم جدرانهم، واحترقت فروشهم، وخانهم كل شيءٍ، ولم يجدوا ملجأ سوى في المخيمات حيث لا ماء ولا دواء ولا مساكن آدمية.

كل المخيمات في العالم تشير إلى تشردٍ وحرمان، وانتظار للمجهول.. وأمل لا ينقطع.. هناك تختلط الخيبات بالأمنيات، ويتدثر اليأس بالأمل، ويمتزج النجاح بالفشل، وترتجف القلوب قبل الأجساد.. ترى هل سيتوقف القصف، ونعود إلى وطننا، ونغادر المخيمات؛ لنبدأ حياة طبيعية؟.. ولنبني بيوتنا، ونعود إلى مدارسنا، ونتخلص من جحيم، وعذاب المخيمات.. ألا يكفي؟!

وأرفق التقرير بصور سفك دماء الفلسطينيين التي أذاعتها محطات الأخبار، فانتشرت كانتشار النار في الهشيم مما أثار غضب العالم كله، فتظاهر الآلاف في أوطانهم ضد استخدام الاحتلال الإسرائيلي الرصاص الحي تجاه الفلسطينيين السلميين الموجودين داخل المدينة، وضد الفدائيين بالمعسكرات الذين لم يبدأوا بإطلاق النار، وإنما جروا من أعناقهم؛ لخوض معركةٍ، لم يستعدوا لها.

وأعلنت منظمات حقوق الإنسان أن مقتل آلالاف الأشخاص، وإصابة الآلاف الآخرين بالرصاص الحي في غزةٍ يجب أن يتوقف فوراً، وعلى المسؤولين عن هذه الانتهاكات الفاضحة لحقوق الإنسان أن يحاسبوا عن جرائم الحرب هذه.

بدورها أكدت الدول العربية دعمها الكامل للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، كما هددت معظمها بقتل العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا وإسرائيل، ووقف جميع الإتفاقيات، وخاصة اتفاقيات تصدير الغاز والبترول وغيرها حتى ترتدع إسرائيل عن بطشها، وتتوقف عن غيها.

كما أكد المجلس العربي أن إشعال النيران بداخل المسجد الأقصى هو استفزاز واضحٌ وصريحٌ لمشاعر أكثر من مليار مسلم في شتى بقاع الأرض.. وأن الأمر لو استمر بهذه الطريقة، ولم تكف إسرائيل عن إطلاق النيران، وتقديم اعتذار واضح وصريح، فسوف يزداد الوضع صعوبة، وستدخل المنطقة في المزيد من الحروب والصراعات التي لا قِبَل لإسرائيل بمواجهتها.

وفي السياق ذاته، أعلنت الحكومة البريطانية قلقها إزاء العنف والقتل وخسارة الأرواح التي تحدث في غزة.. كما أن الحكومة الفرنسية أيضاً، أرسلت من جانبها أكثر

من سبعة مفوضين لحقوق الإنسان إلى قلب غزة رغبةً في وقف تبادل إطلاق النيران، والسيطرة على التوتر الذي تصاعد كتلة واحدة على وجه الأرض".

ولم تجد إسرائيل بُداً من اللعب على أوتار مشاعر الجميع؛ لاستمالتهم إلى صفوفها مجدداً، وإكمال هذه اللعبة القذرة التي تجعل من القاتل مقتولاً، ومن الظالم مظلوماً، ومن الجاني مجنى عليه.

وأعلنت القناة الأولى للتلفزيون الإسرائيلي أن المناوشات التي تقوم بها فرق الفدائيين، هي من جرت إسرائيل إلى إطلاق النيران حفاظاً على أرواحهم، ورداً على استفزاز الفلسطينين لهم.

كما أنها أعلنت أيضاً أن الخسائر لم تكن في الفريق الفلسطيني وحده، بل هناك خسائر مماثلة تماماً في الجانب الإسرائيلي أيضاً!

وحتى تثبت إسرائيل حُسن نيتها، فقد أكدت أنها قررت الإفراج عن عشرة آلاف معتقل تم القبض عليهم منذ حوالي عشرين عاماً، وسوف يتم الإفراج عنهم تزامناً مع ليلة عيد الفصح الذي سيقام الاحتفال به بعد أيام.

وهدأت الثورات العارمة، والمظاهرات الغاضبة لقاء هذا الرد الأحمق، ونسي العالم الدمار الشامل الذي خلفه القصف المتواصل لأكثر من أسبوع دون رفق أو هوادةٍ.. وجاءت الليلة المنتظرة، وبالفعل تم الإفراج عن الآلاف من الرجال والنساء الذين اعتقلوا منذ سنواتٍ بعيدة.. غيّرت السنون ملامحهم، وبدل الأسر أحلامهم وطموحاتهم، خرجوا بأرواحٍ ليست كأرواحهم التي أسروا بها.. لا يعلموا فيما دخلوا ولا لمَ خرجوا؟

ودقت الطبول، وعلت الزغاريد ورأى الجميع أن في الإفراج عن ذويهم عوضاً عن الدمار الذي حدث منذ أيامٍ قليلة، وارتمى كل معتقل في أحضان ذويه، ورُد كل غائبٍ إلى أهله، وعاد كل واحدٍ منهم إلى بيته إلا واحدة، لا بيت لها، ولا مأوى ولا قريب أو حبيب.. غريبة وليست من أهل البلد، جاءت إلى هنا بطفليها منذ تسعة عشر عاماً، فغرق الولد، وتمّ اعتقالها قبل أن تعلم في أي بيتٍ، وضعت فتاتها الوحيدة قبل أن يفرقهما القدر فراقاً لا لقاء بعده!

****

أضيئ الممر الخارجي، وسُمع صوتُ أقدامٍ، تسرع الخطى، وتقترب من زنزانتها.. وفتح باب الزنزانة بشيءٍ من العنف، وأصابها إحساس بالجزع، ودخل " إيلان " بملامحه الجامدة التي تثير الرعب.. أحضر له أحد مساعديه مقعداً، ثم جلس قبالتها قائلاً في هدوءٍ:

-هذه الزيارة ليست كسابقتها كما أخبرتكِ، أنتِ هنا في أحد غرف التعذيب الخاصة بجهاز الموساد، تحديداً تقبعين في قبو الأسرى الخاصين.. الخاصين جداً، فاستمعي إليّ جيداً، وأجيبي على أسئلتي بكل صدق حتى لا نفعل بكِ مالا يُحمد عقباه، وحتى لا نستخدم معكِ أشد وسائل التعذيب.

وهل هناك وسيلة تعذيبٍ أكثر من النظر إلى وجهك البغيض هذا؟

قهقه " إيلان " ساخراً ثم قال:

-وصفٌ عجيبٌ، دائماً ينعتونني بالوسيم.. بعيداً عن الانفعالات، دعينا نتحدث كأصدقاء.

-لكننا لسنا أصدقاء.. أنت اختطفتني.

-أنتِ مَن جئتِ ورائي إلى هنا.. ثم قال ساخراً:

-أنا لم أضربكِ على يديكِ حتى تأتين على وجهكِ إلى هنا.

-ماذا تريد؟

-في غرفة الأسرى بأكبر جهاز مخابرات في العالم.. بظنكِ ماذا نريد؟

-كن واضحاً.

-نريد أن نعرف كل ما تعرفين عن فلسطين أولاً.

-ما المسئول عنها بأعلم من السائل.. أنا لستُ جاسوسة مثلك.

-لكنني متأكدٌ أنكِ تعلمين عنهم الكثير.. دعيني أعرفه أنا أيضاً.

-ولماذا تريد أن تعرفه؟

-لأنها أرضنا.. أرضنا التي وعدنا بها الله.

-تقصد التي وعدكم بها " بلفور " اللعين.

-على كلٍ نحن لم نرد أن نشردهم.. نحن طلبنا العيش معهم في أمان وسلامٍ لكنهم أبوا فاستحقوا ما يحدث لهم.

-أمانٌ وسلامٌ.. بدليل ما تفعلونه في سيناء والجولان، ومعظم البلدان العربية.. أنتم تريدون السيطرة على العرب، ولا أدري لمَ العرب بالذات؟.. أسمى أمانيكم أن يجمعكم وطنٌ واحد من النيل إلى الفرات.. ولكن هيهات.. بهذا وعدنا الله الحق وليس بلفور اللعين ذا.

-أكرر مرة أخرى هذه أرضنا.

-أرضكم.. تشردون أهلها، وتهدمون ديارها، وتيتمون أبناءها، وتقتلعون مزارعها، وتدمرون اقتصادها.. وتقولون أرضكم!!

-نحن أيضاً شردنا، وهدمت بيوتنا، وأحرقنا في الأفران كما أرغفة الخبز.. وإذا كنا نحن سقناكم إلى معسكرات اللاجئين، فهم ساقونا إلى معسكرات التعذيب؛ لنموت حرقاً، وأبادوا معظمنا، ولم يتركوا منا إلا القليل.

-وكانت هذه جريمتهم الوحيدة، ليتهم أبادوكم جميعاً.. هم آذوكم فانتقمتم منا نحن.. نحن الذين لم نسئ لكم في شيءٍ.. أليس عجيبا، ألا ينتقم المظلوم من الظالم بل ينتقم من شعبٍ آخر؟.. أليس عجيبا أن يغفر المقتول للقاتل؛ ليقيم القصاص في وطنٍ آخر؟.. لماذا نحنُ من دون كل هذه البلدان؟!.. لماذا فلسطين تحديداً؟!.. العالم مليئٌ بالدول التي يمكن أن تقيموا عليها وطناً.. أليست أمريكا أمكم الحنون؟ لماذا لم تمنحكم هي الوطن إذن؟

-تريدين الجدال، ولا وقت لدي، ونهض " إيلان " وكست وجه علامات التجهم قائلاً:

-غبية.. لا فائدة منكِ.

-لا فائدة مني حتى أموت.

لقد تحدثتُ معكِ مرتين بهدوءٍ، وفي الثالثة سأضطر لاستخدام وسيلة من نوع خاص لعلها تجدي معكِ نفعاً.

ثم همّ مغادراً، ولكنه قبل أن يخرج، التفت إليها مرة أخرى قائلاً:

-بالمناسبة أعددتُ لكِ مفاجأة.. مفاجأة سارة جداً.. تجهزي لها.

****

ومرت الأيام، وجهاد تثبت جدارتها في كل شيءٍ حاولوا تلقينها إياه، لم تتعد مدة تلقينها أياما فحسب، برغم أن مدربيها تلقنوا هذه التدريبات في عدة أعوام، والتفت الأنظار حولها، وزادت أهميتها، وباتت ركنا حصينا من أركان المعسكر، وساءها التفاف الأنظار حولها لو دقق أحدهم في النظر إليها؛ لعلم أنها فتاة، وليست رجلاً كما تدعي.. وزادت حيرتها إذا كانت مجرد امرأة، فمن أين أتتها كل هذه القدرات الخاصة؟.. قدرتها على القتال، وقدرتها على التنكر، وقدرتها على تنظيم الصفوف، وتوزيع المحاربين.. وشعرت جهاد أن في داخلها أشياء أخرى تستطيع أن تخدم بها هذا الوطن البائس.

وبعد بضعة أيامٍ، وذات صباح أمضت جهاد بضع ساعاتٍ، وهي تتنقل بين المواقع الخاصة بالمعسكر.. كل شيءٍ هادئ، الأمور تسير على ما يرام حتى تلك اللحظة التي سمعت فيها صوت بكاءٍ مكتومٍ آتٍ من إحدى الغرف الجانبية، والتي توقفت أمامها، وطرقت بابها؛ لتستطلع الأمر، ولكن صوت البكاء انقطع، ولم يأتها الأمر بالدخول، وظنّت أنها واهمة، فأكملت سيرها، وتقدمت بضع خطواتٍ أخرى، ولم تكد تبتعد حتى سمعت صوت ارتطام شيءٍ صلب بالأرض، فعادت مسرعة إلى الغرفة نفسها التي وقفت ببابها مسبقاً، وطرقت بابها بشيءٍ من العنف، وأحست في الأمر خطباً ما، وحاولت أن تستنجد بطاقم التمريض فوحدهم الموجودون بالقرب الآن.

وأتى اثنان منهم، وقاما بكسر باب الغرفة، ولكم كانت دهشتهم، حينما وجدوا " عبدالرحمن " معلقاً بحبل في سقف الغرفة، بعد أن سقط المقعد الذي كان يقف عليه، وصرخت " جهاد " صرخة كادت أن تكشف أمرها فغطت عينيها، وابتعدت مسرعة.

قاموا بإنزال جسد " عبدالرحمن " الذي لم يفارق الحياة بعد.. قاموا بإجراء بعض الإسعافات الأولية، والتي كانت عظيمة الجدوى والفائدة، ولحسن الحظ مرور جهاد في هذه الساعة كان له أكبر الأثر في إنقاذه.

وتناقل الجنود الخبر وسط ذهول واندهاش الجميع، فهذه أول حالة انتحار تحدث في أحد معسكرات الفدائيين، وساءت حالة الجنود، وأصبحت روحهم المعنوية في الحضيض، ولم يجرؤ أحد على سؤاله لمَ فعل هذا؟ وهو الذي يتقد شباباً، ويشتعل حماساً وحيوية، ولديه قدرة خارقة على أن يسخر من عظائم الأمور، وأن يحول الجو الكئيب الملبد بالخطر والخوف إلى جو مملوء بالحماسة والأناشيد الوطنية الثائرة، بالإضافة إلى روحه المرحة ونكاته المضحكة.. أيمكن أن يفقد همته العالية وحماسته المفرطة بسهولة هكذا؟!.. وما الذي دفعه إلى أن يفعل هذا؟!

واحتجز " عبدالرحمن " في حجرة الكشف الطبي بمفرده، ومنعت عنه الزيارة حتى يتم استجوابه وعلاجه إن احتاج الأمر إلى علاج.

وكُلفت "جهاد" بالحديث معه بعد أن فشل الجميع في التوصل إلى شيءٍ، ومحاولة التوصل إلى المشكلة التي دفعت به إلى ذلك حتى يتم حلها، ومساعدته في التخلص منها وحتى لا تسري عدواه بين الجنود كالطاعون.

وحاولت "جهاد" قدر استطاعتها الحديث معه، لكنه في كل مرة كان يأبى الكلام وبشكل عدواني، وتفاقم الأمر، وطلب " عبدالرحمن " مغادرة المعسكر، والسماح له بانتهاءِ خدمته، وساءت حالته أكثر وأضرب عن الطعام، وأصبحت

حكايته حديث الجنود في كل وقتٍ.. وأشفقت جهاد على حالته، وقررت الوقوف بجانبه كي يتجاوز محنته.

وفي الغد التالي عبرت " جهاد " باب غرفته، وكست ملامحها بابتسامةٍ هادئةٍ حتى تطمئن نفسه، وجلس أمامها " عبدالرحمن " وقد بدا عليه القلق والإرهاق ثم بدأت قائلة:

-ماذا بك؟.. صدقني أريد مساعدتك.

ورد " عبدالرحمن " في عصبيةٍ وعنفٍ:

-لا شيءَ.. أنا بخير.. فقط اتركوني وشأني.

-لا يصح أن نتركك في هذه الحالة، كيف تريد منا أن نتشبث بك في أوقات نشاطك وحماستك وصحتك وبريقك ،وأن نتركك وشأنك في وقت محنتك وضعفك ووهنك وخفوتك!.. أنت واحدٌ منا والوقوف بجانبك واجبنا حتى تتخطى أزمتك بسلام.. اهدأ واحكِ لي عن كل ما بك.

-لن أحكي.. وإن حكيتُ فلن تفهم.

-سأحاول أن أفهم.

ورد " عبدالرحمن " في حزمٍ قاطع:

-قلتُ لك لن تفهم.. وأرجوك اذهب ودعني.

-لا تغضب هكذا.. أنا أريد أن أساعدك.

فقال " عبدالرحمن " بحنق وإصرار:

-لا يمكنك.

-لماذا؟

-لأنني لم أساعد نفسي، فكيف سيفعل الغرباء؟!

-ظننتُ أننا أصبحنا أصدقاء منذ أن كنتُ أطلب منك أن تغني لنا أناشيدك كل ليلةٍ.. وكنتَ تخبرني أنك لا تستطيع أن ترفض طلباً للفارس الجديد كما كنت تلقبني دائماً.

وساد الصمت برهة.. وعادت جهاد تقول:

-أقسمُ لك أنني ما جئتُ إلا كصديق أو أخٍ، ورغبتي هذه بعيدة كل البعد عن العمل المكلف أنا به من القائد، ولتتأكد من حسن نيتي سأرفع تقريراً كاملاً له بعدم رغبتك في الحديث معي أيضاً، وسأرفق التقرير بطلب فصلك من الخدمة.. ثم إن شئت بعدها أن تحدثني كأخ فافعل، وإن شئت أن تحتفظ بأسرارك لنفسك فلك ذلك.

زفر "عبدالرحمن" في نفاذ صبرٍ، وقال في حسمٍ:

-لستُ أخاً لأحدٍ.

فقالت جهاد في نبرةٍ حانيةٍ:

-كما تريد.. وهمت مغادرة.

لكنه نطق بلهجةٍ منكسرة:

-سامحني.

ورفعت جهاد حاجبها في دهشةٍ، وتساءلت في هدوءٍ:

-أسامحك على ماذا؟!

-على كل شيءٍ.. واطلب من الجميع أن يسامحوني.. فلقد خيبتُ آمالهم.

وساد الصمت برهة.. وقالت جهاد في رفقٍ وثقةٍ:

-اهدأ يا " عبدالرحمن "، وثق أنك من أفضل محاربينا هنا.. وإن شئت أن تحدثني فتكلم، وإن لم تشأ سأتركك؛ لتستريح، وسأقدم الطلب الذي حدثتك عنه.

وأطلق " عبدالرحمن " زفرة طويلة، أخرج معها بعض ما أنقض ظهره، وأثقل كاهله، واسترخى في مقعده، وقال وقد شرُد ذهنه وشخُص بصره، ويكأنه يحدث نفسه:

-أنا خائن.

-لا تقل هذا.. أنت من أكفأ الجنود هنا.

-أنت لا تعلم شيئاً.. أنا في الحقيقة خائنٌ.

-بل أنت مناضلٌ وشجاعٌ.

-هذا ما أوهمتكم إياه.

تنهد " عبدالرحمن " وبدأ يروي التفاصيل التي جعلت منه خائناً.....

****

" اسمي عبدالرحمن.. شابٌ فقيرٌ.. ولدتُ بأحد أحياء عكا منذ ستةٍ وعشرين عاماً.. توأمٌ لأختي الوحيدة.. كنا نحيا في رغدٍ من العيش.. يفيض خيرنا على جيراننا، والفقراء من أبناء حيينا.

ترعرتُ وسط هذا العز لمدة سبع سنواتٍ، حتى ذلك اليوم الذي أصيب فيه أبي بحادث سيارة، فبترت قدميه، وروعنا ما حدث، وخيمت على بيتنا سحبٌ من الكآبة.. وتساءلت أمي:

-مَن سيعولونا من بعد أبي؟.. بل مِن أين سنعول أبي ذاته؟!

وخيّم علينا جو يشبه الوفاة، وتحول البيت إلى سُرادق عزاء.. وكانت أمي تتصرف، وكأن أبي قد مات، وكأن زمن الخيرات قد ولى وانتهى، فمنعت عنا النقود واللعب، وأضحى الطعام بقدر، وحُرمت علينا بعض أنواعه كمظهر من مظاهر الترف.

وبدأت تطحننا رحى الحاجة والمذلة، واستطعنا أن نجمع شكل من هنا شكل ومن هناك؛ لنجمع حداً أدنى ندفع به عجلة الحياة.. وتعودنا على حياتنا هذه.

وذات ليلةٍ، عندما كنتُ في العاشرة من عمري قلتُ لأمي والكتاب بين يدي يشرد بصري بين سطوره أرى الكلمات ولا أعي منها شيئاً:

-كنتُ أودُ أن أحدثكِ في مسألةٍ ما.

ورفعت أمي رأسها عن السكين الذي كانت تقطع به الخبز، ونظرت إليّ وتساءلت:

-أية مسألةٍ؟

-أريدُ أن أترك الدراسة حتى أعولكم.

وتساءلت أمي بجزع:

-لمَ؟!.. هل قصرتُ معكم في شيءٍ؟!

فقلتُ بتلقائيةٍ:

-لقد نمتُ بالأمس، والجوع يكاد أن يفتكُ بجوفي.

وازدردت أمي ريقها.. وتساءلت في صوتٍ جريح:

-حقاً؟.. إنني أبذل كل جهدي من أجل الحصول على نقودٍ تكفيكم.. ماذا أفعلُ أكثر من ذلك؟.. إنني حاولتُ قدر استطاعتي.

ومنذ تلك الليلة، لم أعد إلى المدرسة.. وصممتُ أن أقوم أنا بدور العائل لأسرتي.. وأن أعفي أمي من العمل في المنازل، ومن كل هذه المذلة والاستجداء.

وبعد أيامٍ قليلةٍ، مات أبي حاملاً في صدره أكواماً من الهم والحسرة، ورغم تقاعده، وعدم قدرته على خدمة نفسه إلا أنه كان عمود البيت الذي انهدم بموته، وانهار السقف على رؤوسنا، وشعرنا بالفراغ العظيم الذي خلفه.

ومرت الأيام، وبهتت صورة أبي، وتعاظمت بمواجهتها صورة الفقر والحاجة، وظللتُ أتنقل من عمل إلى آخر، وظروف الاحتلال لم تسمح لي بالمكوث في عمل واحدٍ أكثر من شهرين.. فكلما التحقتُ بالعمل في حانوتٍ أو ورشةٍ ما، حجزت عليها قوات الاحتلال، وتداول الناس خبري وقالوا إنني نذير شؤم!

وأغلقت أبواب العمل في وجهي، وجلستُ في منزلنا مرة أخرى، وعادت أمي إلى استجداءِ الجيران، وبعض أقاربها للعمل في منازلهم، بعد أن كنا نمنحهم نحن ما يفيض عن حاجتنا.. وتارة يعاملونها برفق، وتارة أخرى يعبسون بوجهها حتى ضاق الجميع بنا ذرعاً.

وذات مساءٍ، حدث لنا حادث طبيعي اعتبرته أمي كارثة.. حضرت إلينا جارتنا ذات يومٍ؛ للحديث في أمر مهمٍ، ولم يكن هذا الأمر المهم سوى أنها تريد أن تزوج ابنها لأختي ليلى.. وطلبت أختي للزواج.

وجمت أمي، ووعدتها أنها ستفكر في الأمر، ورحلت المرأة، ولم تجد أمي ما تعبر به عن حيرتها سوى انهمار الدموع من مقلتيها، ثم دعت الله في مرارةٍ أن يفتح لنا أبواب الرزق.

صمت " عبدالرحمن " وبدأت جهاد مشدوهة، وهي تواجه كل هذه الحمم التي ألقاها هذا الإنسان البادي الرضى، الباسم الثغر، من خبايا صدره.. وأخرج زفرة طويلة، ثم أكمل:

-ورفضت أمي العريس؛ لأننا لا نملكُ مالاً نجهزها به، وتقدم العريس يليه آخر، ونحن لا نملك إلا الرفض.. تعرفين لماذا؟.. لإنني عاجز.

-لا تظلم نفسك.. ماذا كان يمكن أن تفعل؟

-وتبادل الناس الشائعات عنها!.. ولم يقدّر أحد سبب رفضنا لزواجها، وازداد الكلام، وكثرت اللغط، وأصبحت سيرتنا موضوع جلسات أهل الحي.

وذات يومٍ، جاءت هي إليّ؛ لتشتكي لي ما يقولوه الناس عنها.. ولم تكد تنطق بعض الكلمات حتى بكت، فأحسستُ بمطرقةٍ تهوي على رأسي.

وسعل " عبدالرحمن " سعلة عصبية قصيرة، ثم استطرد يقول:

-هل تصدقني إن قلتُ لك أنني أسمعُ صوت نشيجها حتى الآن في أذني؟.. وأخذتها بين أحضاني، وامتلأ صدري بالغضب والحقد على هذا المجتمع البائس الذي لا يتورع عن الحديث في أعراض الناس، ولكنه يطلب الستر من الله.

ذلك المجتمع الذي يعتبر الفقراء أحباب الله، لكنه يسخر من الفقير.. ذلك المجتمع الذي يحرم الانتحار، ولكنه يدفع الناس إلى قتل أنفسهم دفعاً.

ولم أجد ما أفعله.. أغلقت الأبواب في وجهي.. وضاقت عليّ الأرض بما رحُبت.. وجئتُ إلى هنا متمنياً الموت، وهارباً من الحياة وكارهاً لها.

-أهذا ما دفعك للانتحار؟

وعادت نبرة النحيب تسري في صوته، وهو يردف قائلاً:

-لا.

-إذن، لماذا أقدمت على قتل نفسك؟

-لأنني خائن.. خنتُ العهد وحنثتُ القسم.

-لا تضخم المسألة.. أنت متعب، ولعلك تجور في الحكم على نفسك.

-حتى لو أفشيتُ أسرار المعسكر للأعداء.. وكنتُ سبباً في أسر الرفاق؟!

وشهقت "جهاد".. وسالت دمعة كبيرة على وجنته.

****